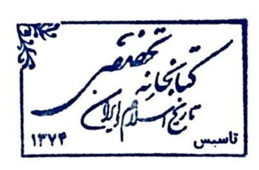


رسالة الحياة

لأبي حيان التوحيدي

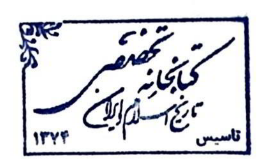
طبعة محققة ومنقحة



الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أبو حيان التوحيدى من رواد الفكر والفلسفة العربية الإسلامية ، فقد أثرى المكتبة بأمهات كتب الفلسفة إلى جانب ما أحرقه بنفسه فكان من الواجب علينا إظهار تراثه ومن هنا نقدم "رسالة الحياة" وهي من أفضل ماكتبه في هذا المجال.

فأبو حيان التوحيدي هو الفيلسوف والمتصوف على بن محمد بن العباس ، قال عنه ياقوت الحموي : شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء ، وقال ابن الجوزي : كان زنديقاً ، ولد في شيراز أو في نيسابور وأقام مدة ببغداد ثم انتقل إلى الري ، فصحب ابن العميد والصاحب ابن عباد فلم يحمد ولاءهما ووشى به إلى الوزير المهلبي فطلبه ، فاستتر منه ومات في استتاره عن نيف وثمانين عاماً . قال ابن الجوزي أيضاً : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي والتوحيدي والمعري ، وشرهم التوحيدي لأنهما صرحاً ولم يصرح . وفي بغية الوعاة للسيوطي أنه لما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لا يعرف قدرها ، فجمعها وأحرقها فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق . من كتبه "المقابسات" و"الصداقة والصديق" و"البصائر والذخائر" خمسة أجزاء، و"الإمتاع والمؤانسة" ثلاثة أجزاء و"الإشارات الإلهية" موجز منه ،

و"المحاضرات والمناظرات" و"تقريظ الجاحظ" ، و"مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد".

صفوة القول أن التوحيدي لم ينال حظه في الكتابة عنه ، فلهذا أسرعت مكتبة الثقافة الدينية في نشر تراثه وأعماله .

والله الموفق ..

القاهرة في ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

رسالة الحياة

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حَسبْي وَنِعمَ الوكيلُ ، رَبّ تَمِّم بالخَير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اجعـــل فِكْرَنـا في مَلكُوت سَمائك وأرضَك وما بينهما ، عائذاً علينا بمعرفتك ، وبحثنا عن أسـرار حكمتك ، مُحركا لنا إلى خالص توحيدك ، وتصفّحنا لظاهر علمك وباطنـه ، مُفْضياً بنا إلى الثقة بك ، واستيحاشنا عن كل ما يُبعدنا عنك ، بابـاً مفتوحـاً للأنس بذكرك ، وبراءتنا من عبادك الجاهلين بك ، الضّالينَ عنك ، موصولـةً بطاعتك ومرضاتك ، ومهما أثبتَّ في أمرنا فاخصُصْنا بتـأييدك ، واعممنـا بتسديدك (وأَمْتِعْ) قلوبنا بالرضا عنك ، واهْزُزْ أرواحَنـا بالشـوق إليـك ، واشحَذْ ألسنتنا بالدُّعاء إلى عبادتك ، وطَهِّر أفئدتنا من أدناس الشكّ والرّيـب في طلب القُربة عندك ، وأَرِنا الحقَّ في معرضه البهيّ المونق حتى ننتحلَه مُوقنين، وبيّن لنا الباطَل في منظره الزريّ حتى نولّـي عنه مُعْرضـين ، وفي الجملـة والتفصيل كن لنا ناصراً ، ومُعيناً حاضراً ، وإلينا ناظراً ، وهيئْنا للحَذَر مـن خطرات الحَيْرة، ونظرات الحَسْرة ، واملأ قلوبنا بالنُّور الذي مَنْ خُصّ به أبصر ما دُونه فتوقّاه ، وما فوقه فتلقّاه ، وما عن يمينه فاختاره ، وما عـن شِـماله فاحترز منه ، وما أمامه فانتظره ، وما وراءه فاحتقره ، وما حَلّنـا بشـعارٍ لا

نتحدثُ به إلاّ إليك ، ولا نُثني به إلاّ عليك ، ولا نَضْرع إلاّ لوجهك ، يـاذا الجلالِ والاكرام ، ويا مصرِّفَ الأيام بين النَّقْض والإبرام .

جرتْ أدامَ الله رَوْحَ قلبك ، وبردَ فوآدك مذاكرةٌ في البيان عن أصناف الحياة التي هي محبوبةٌ كلِّ نفس ، ومطلوبةُ كلِّ ذي حسّ ، وكان الكلام فيـها يَقْسُو مرةً ويلينُ أخرى ، ويخمدُ طوراً ، ويتّقدُ طوراً ، ولا يأتلفُ ائتلافاً ، لـه فنونٌ ترسم بالعلم ، وتنبسطُ باللفظ ، وذلك لِكُلول الحِدّة ، وعُلُوِّ السّـن ، ونضوبِ ماءِ الوجه ، وانفضاخِ مَتْن الحال ، ويَبْدِ قوي الطبيعية ، وتمافُتِ قـوة الفِطْرة ، وخُلوقة الأدمة والبَشَرة ، وعوارض آفات القريحة ؛ وتباعد أقطـار العبارة عن الحقائق المحدودة ، ثم أني نعمت بشيء فيها علـى (×) في الحديـث السانح المعهود عند بعض الرؤساء ، ممن آتاه الله عبرةً في أمره ، وصحةَ استبانةٍ في شأنه ، فعرف ما عليه وله ، وقَصَرَ زمانه على اختيـار النـافع عـاجلاً ، واجتنابِ الضار آجلاً ، هذا مع اشغالِه المتكاثفة ، ونظرِه المتـوزّع ، وفكـرِه المتعَب أخذ الله بيده ، وأعانه على ما يحمل من أمره ، فملا فهم أعجب ، ولمـا أُعجب ، حَضَّ على تأليفه في كتاب ، وتلطّف في ذلك بأحسن قول ، ووعـد عليه أجزلَ ثواب ، وفَيَّل[1] الرأي في النُّكول عنه ، والرضى بالجَواز عليـه . وقال : في نَشْرِ الحكمة ثوابٌ روحانّي ، وذكرٌ دهريّ ، وَصِيتٌ باقٍ ، وبهجـةٌ مَوْمُوقَةٌ ، ولو لم يكن فيه الا التلذّذ به ، واستنتاج بابٍ بعد باب يليـه لكـان يجبُ ألاّ يُكْسَلَ عنه ، ولا يُجنَح إلى التفريط والتقاعد دونه وهذا الذي قالـه

[1] فَيَّلَ الرأي : ضعّفه .

هذا السيد ظاهرُ الصَّواب، ناصعُ الدليل ، موجودُ البرهان ، غيرُ مشكوكٍ فيه، ولا مُرتاب منه ، ولكن أين البالُ الرخيّ ، والفوادُ الذكّي ، واللسانُ الحليف ، والصديقُ المساعد ، والمستمعُ الواعي ، والطالبُ الراغب ، وأنّي ليَ الأمانُ من الخطأ والسلامةُ على المُنْحَنى .

هذا وقد قال سقراط الآلهي : افرحْ بما لم تنطِقْ به مِنَ الخطأ أكثر من فرحك بما لم تسكُتْ عنه من الصواب ، وهذا كلامٌ نفيسٌ يحثُّ على معرفة مواقع النُّطْق والصَّمْت ، وهذه المعرفةُ تُتَاجٌ للفكر الصحيح ، آتيةٌ بالحق ، جَلوبةٌ للرُّشد ، هيهاتَ ، غامت سماءُ العلم . وأظلمَ جوُّ البيان ، وانكسر فقارُ الدين ، وتحطَّم عمودُ الشباب ، وقلّ نصيرُ الأدب ، وتقوّض بناءُ الخير ، وبلِيَ ثوب المروءة ، وغارتّ عينُ الحياة ، وعقمتْ أُمُّ الوفاء . فلا جَـرَم لا باب للعرف إلا وهو مَسدود ، ولا جُرُفَ للعقل إلا وهو مُنْهار ، ولا جانبَ للفَيْض إلا وهو مُنثلم ، ولا ثَغر للحكمة إلا وهو مُسْتباح ، فالمصيبة عامة ، وإنْ كان العزاءُ خاصّاً ، والبلاءُ شاملٌ ، وإن كان المكترثُ به قليلاً ، والعَجَبُ حاضرٌ ، وإنْ كان المتعجّبُ غائباً ، والعليلُ مستغيثٌ وإن كان الطبيبُ مفقوداً .

وأقف عن هذا الحديث فانه قد قيل مُسنسلاً ليس بين يديه حاجز يصدّ، ولا مانعُ يمنع إلاّ أَنْ يأذنَ الله بفرحةٍ يقيِّضُها ، ونشأَة أُخرى يُعيدها ، ونظرة يجبُرُ بها كَسْر الزمان ، وجذم أصله وفصله الحدثان ، ومن دون ذلك ما يتزحزمُ عن هذه البقعة الغاصّة بأنواع الأسى والحُرقة . نسألُ الله العظيم أن

يقضي ذلك مرفوعاً بغفرانه قبل أن يُتمنى بالقلب واللسان فالأول يقول[1]:

فالموتُ خيرٌ للفتى فَلْيَهْلِكَنْ وبه بَقيَّـــهْ

مِنْ أن يُرى تَهدْيِهِ وِلْدانُ المُقامَةِ بالعَشيَّهْ

فانه وليٌّ ذلك والقادرُ عليه .

نعم أبقاك الله وأتمّ نعمته عليك، ومع الذي قَدَّمْتُ وأخرَّتُ ، وصعدَّتُ وصوَّبتُ ، فإني لم أرَ من حقّ هذا الصديق الكريم أن أُخالفه عامداً ، وانحــرفَ عن مراده مُعانداً ، بل رأيتُ أن أتقلّدَ الكلام في ذلك بالغاً وقاصراً ، ومنتهياً ، ومتوسطاً لأنجُوَ من عتبه ، وأفوزَ بمرضاتِه ، وليكونَ وجهي في طاعتـــه أعــزَّ واضحاً ، وصوابي عنده مقبولاً ، وخَطَئي لديه مُحْتملاً .

وأعودُ فأقولُ في شرح أصناف الحياة بمبلغ العلم الذي عندي ؛ فـــإذا فرغتُ منه أضفتُ إلى جملته فقراً شريفة ، بعباراتٍ مألوفة ، على قدر الرســالة فإن تلك أشبهُ للحال ، واجلبُ للفائدة ، وأحسمُ لمادة التكلّف ، وأبلـــغُ إلى الغرض المنحُوّ ، وآتيَ على المراد المقصود إن شاء الله تعالى .

أصنافُ الحياة عشرة : ثمانية مُتِّعَتْ بها البشر على التفاوت الواقع بــين الحيّ والحيّ كما سنبيّن من بعدِ ، واثنان مُرْتقيانِ إلى ما يشكل العلمُ بــه إلاّ في

---

(١) البيتان من قصيدة للشاعر الجاهلي زهير بن جناب سيد بني كلب وقائدهم في حروبهم ومطلع القصيدة:

أبنيّ إنْ أهلك فقد أورثتكم مجداً بنيّهْ

وكان زهير من المعمرين ، وقيل إنه عاش حتى هرم وغرض من الحياة ولم يكن يخرج إلاّ ومعه بعض ولده أو ولد ولده .

الجملة ، ويعتاضُ المرادُ منه إلاّ مع التسليم ، فالصنفُ الأول يقالُ لـــه حيـــاةُ الحِسّ والحركة . والصنفُ الثاني يقال له : حياةُ العلم والبصيرة . والصنـــفُ الثالثُ يقالُ :

حياةُ العمل والكدح . والصنفُ الرابع يقال له : حياةُ الخُلُق والسجيَّة . والصنفُ الخامس يقال له : حياةُ التديّن والسكينة . والصنفُ السادس يقـــالُ له: حياةُ الكمال الأول . والصنف السابع يقال له : حياةُ الظن والتوهمّ ويقال له أيضاً : حياة الذِكر . والصنفُ الثامن يقال له : حياةُ الكمال الثاني وهـــي حبُّ العاقبة .

فهذه ثمانيةُ أصناف ، ويتدرجُ فيها الواحد بعد الوحد من البشر بحسب السّهام العُلْوية ، والمكاسب السُّفْلية ، والتأهيل الآلهي بـــالمواهب الســـابقة ، والتكامل البشريّ والمساعي السابقة .

والصِنْفان الآخران أحدُهما حياةُ الملائكة والآخر ما يقال له : إنّ الله عزَّ وجلّ حيّ ، وهاتان الحياتان نقتنع في أمريهما بالكتابة عنهما . لإشكال الكُنْـــه فيهما ، ولإضراب العقل عن تحديدهما ، وَحَرجَ الصدر عن توهمهما وتمثيلـــهما فيك فنقول :

*

أما الحياةُ الأولى فهي حياةُ الإنسان التي بها يُحسّ ويتحرّك ويلذّ وينعم ويشتكي ويألم ، وهذه مشتركة أعني أنّ ضروب الحَيوان من فرس وحمار وخنزير وقرد وغير ذلك لها هذه الحياة التي تشتمل على الحسّ والحركة والقَوْمِ إلى الغذاء ، والحاجة إلى البقاء ، وبها يتعلق إلى تحلّل المُنحَلّ منها ، وبها يتشوّقُ إلى استجلاب أمثالِهِ إليها ، ولا تفاوتَ في تلك الحياة بين هذه الضروب بل كلّها تجتمع في الصفات ، ويقبل بالطبع الأول هذه الحالات فلهذا لا يقال : هذا الحي أحيا من هذا الحيّ وقد يُقال : زيدٌ أحيا من عمرو أي أنه أكثرُ حياءً منه . ولعله يقال أيضاً : هذا الحيوان أحيا من هذا الحيوان ، أي أطول مدةً في الحياة ، فأما في نفس الحياة فهي في الجنس والنوع والشخص واحد فقد بان أنّ الصِنْفَ الأول من أصناف الحياة قد اشترك فيه ، وهذا الاشتراك وقع بالحكمة كالأساس لباقيها ، وكالغَرس لكلّ ما يدخل في حَوزْتها.

*

وأما الحياةُ الثانيَة فهي حياة العلم والمعرفة والفَهْم والدراية والحفظ والروِّية والحكمة[1] والبحث والاستنباط والمسألة والجواب وهذه الحياة تُستفاد بالتأييد الآلهي ؛ والاختيار البشري ، مع النيّة الحسنة ، والسعي الدائم؛ والمحبة النفسية ؛ واللطافة الروحية ، والرقّة المِزاجية .

[1] في الهامش : حياة حسن التمييز للقوة النظرية .

فأما الحياة الأولى فهي مع الجِبِلّة والفِطْرة ؛ وهي صورة الطِّينة ولذلك وقع فيها الاشتراك من الجميع وهذه الحياة هي الهادية لصاحبها إلى نَيْل الكمال وبوغ الآمال ، والتفاضل الواقع في هذه بحسب الحظَ والاطّلاع والسلوك والزَمَاعَ[1] ، فإنْ عَرَضَ النقص في سلوك هذه الحياة فإنّ صاحبها يصيرُ شبيهاً بضروب الحَيوان التي وصفناها من قبل . وإن كان أرفعَ منها في الجوهر ، والسنْخ ، والعُنْصر ؛ والشّكْل ؛ والنّفْسُ وإن استمر صاحبُ هذه الحياة على اخذ الفوائد المُجْدية ؛ واقتباس المعارف المحققة صار شبيهاً بالملائكة الذين بسَائطهم مركبّة على تركيباهم ، وجسميتهم مَلُوكة بروحيانيتهم ؛ وكثافتهم مغلوبة بلطافتهم . فعلى هذا إن قيل : إن العالم أحيا من الخامل ، أَي أكثر حياةً في هذه الحياة التي فسرنا لم يكن مُنكراً ولا بعيداً .

*

وأما الحياةُ الثالثةُ فهي حياةُ العمل الصالح بالرفع والوضع والأخذ والعطاء والعشرة والصداقة والوَداعة وحسن العهد وصدق الوعد ؛ وهذه الحياة إذا انضمت إلى الحياتَيْن الأُولَيْين كمَّلَتِ الانسانَ ، وزادتُ في قيمته ؛ وعَلّت من جرجتِه ، وأفادتهُ شرفاً أبديّاً ، وعِزّاً سَرمديّاً ؛ وألبستهُ جِلْبابَ البقاء ، وسلَّكتهُ إلى كَنف السعادة ، وخَلطته بزمرة الملائكة .

---

[1] الزماع : المضاء في الأمر والعزم عليه .

وأما الحياةُ الرابعةُ فهي حياة الدِيانة والسكينة ، وبها ينال صاحبُها خَيْرَ العاجلة والآجلة ، لأن سِربْال الدين صاف ، وقُلَّتهُ عليه ، وعُقْباهُ مأمولة ، وسريرته ظاهرة ، وعلانيته مَرْضيَّة ، فبالتدّين يكملُ الناقص ، ويزداد الراجح، وينجو المُشْفي ، ويَبْرَأُ العليل ، ويرشد الغويّ ، ويستبصر العميّ ، ويهتدي الضالّ ، ويستقيم المعوجّ ، ويُدْرَكُ الفائت ، ويُسْتبان الغيب ، وتمجيدُ الدين دويلٌ لا غايةَ له فيوقف عندها ، ولا حدَّ له فَيُنْتَهَى إليه فلذلك نبسط عُذْرنا في الإمساك عنه بعد الدلالة على نصّه .

*

فأما الحياةُ الخامسةُ فهي حياةُ الاخلاق التي مَنْ هذبَها ، ومَنْ هذّب بها ونفى خبيثَها ، وتحلّى بطّيبها ، هَنُأ عيشُهُ ؛ وعيشُ من يعايشه ، وصَفَتْ سريرتُه من الكَدَر ، وبرّ سعيُهُ في كل ما حلا وأمر ، وإنما أفرزْنا الاخلاق من الديانة والسكينة والعمل الصالح لأن الخُلُق تابع للخَلْق بالمضارعة اللفظية، وهو ينقسم بين ما يزول بالرياضة كلّ الزوال ، أو يقلُّ بعضَ الإقلال ، وبين ما يكونُ صورةً للنفس لا يُطْمع في البراعَة منه ، والطهارة عنه ، وقد صنَّف الحكماءُ الأولون والآخرون كتباً في الأخلاق وذكروا أعيانها بأسمائها وصفاتها ؛ وحدودها ورسومها ، ومجملها وفصلها ، ودلّوا على الحَسن والقبيح منها ، ودعوا إلى التحلّي بأحسنها ، والتعَرّي من أَسْمَجِها ، فضربوا لها الأمثال ، وسحبوا عليها ذيولَ المَقَال ، فلذلك كَفتِ الإِشَارة في الجملة إليها دون التفصيل الدال على خلق خلق منها ، ولو ميّزنا الأخلاق بالشرح في هذا

المكان للزم أيضاً أن نشرح الدين والعمل وجميع ما سلف اللفظ به وأتى الذكر عليه .

*

وأما الحياةُ السادسةُ فهي ان تُستجمعَ من جملةِ الحَيّوات المتقدمة لأنّـا كما رسمنا كل واحدة منها باللفظ الوجيز ؛ والعبارة الخاصة دللنـا في هـذا المكان على صورة أُخرى تحدث لها بالتناظم والتلازم والاجتماع والتـأليف لم تكن من قبل لأن الأشياء المفردة ، صورها مخالفة للأشياء المتضامّة ، وكذلـك الأشياء المتباينة ليست كالأشياء المتلائمة ، وهذا عِيان وهو غنيّ عن البرهـان ، فمن فاز بهذه الحياة علا شأنه ؛ وشرُفَ مكانُهُ ؛ وبلغ إلى فَجْوة النجاة .



وأما الحياةُ السابعة فهي حياةُ الظن والتوهّم أعني مـا يغلـب علـى الانسان من الذِكْر والصّيت والشُّهرة بأي وجةٍ كان ولذلك قـال الأول : ان الثناءَ هو الخُلد . ولما شعر الانسانُ بالبقاء جَدَّ في طلبه بكل وجهٍ ، وشامَ برقَـهُ بكل طَرْف ، وحَلُمَ به في كل نُعاس ، وتمناه في كلّ انتباه ، وكلُّ أحدٍ يتوهُـم نوعاً غير نوع صاحبه بقدر مزاجه ، ونقصه وزيادته ، وعقله ورأيه ، وبديهتـه

ورويته وعلى هذا وهماً[1] الناس . وصاحب هذا الغرض لما غفل عن البقاء الحق سَعَي كسب الحياة التي كأنها بالذكر والصيت والاشتهار كالحياة المألوفة بالحس والحركة ، ومن هذا الضرب طلبَ الانسانُ النسل لأنه يتخيل لبقاء النوع شبهاً لبقائه الشخصي ولهذا يقال : نَسْلُهُ أي نُسلَ منه ، وسُلالتُهُ أي سُلّ منه ، ومُصافحتُه أي مصّ منه ، والفرق بين الحياة والبقاء ، والعيش والدوام ، والثبات والخُلد ، والكون والوجود ، مشهور واضح . فإن تركنا ذكره ميلاً إلى تخفيف الرسالة جاز ، وإن هَشَشْنا للاشارة إليه ساغ ، وتقول في ذلك بعد هذا الشرح عليه ما يتيسَّر ، وإن كان غير آتٍ على الغاية أما البقاء فهو أعم من الحياة لأنّا نقول في الحي باقٍ ، وفي غير الحي أيضاً نقول : باقٍ ، والحياة أدْخل في الحِس لأنها أعلق بالحركة ، والباقي قد يكون بحركة وغير حركة ، فأما العيشُ فإنه أشد لطاقةً بمادة الحياة ، وكذلك يقال : خرج فلان في طلب المعاش فأما الحياة فقد كانت قبل هذا الخروج ، ولذلك يقال في الله تعالى حي ولا يقال عائش .

وأمّا الثّباتُ فالإشارة فيه إلى الرُّسوخ ، والامتداد منه عارض . وأما الدوامُ فالامتداد فيه أبْيَنُ إلاّ أنه في المحسوس أحْرى .

وأما الخُلْدُ فكأنه أدخل في الامتداد الذي لا طرف له .

وأما الكون فهو من حركات الزمان وأثر الحِدْثان .

---

[1] كذا في الأصل.

وأما الوجود فليس من هذا القبيل لأنه في الحقيقة في حضن الدهـــر إلاّ أن الدهر لّما كان أُمّ الزمان استعير منه ، ونُعِتَ بولده الذي هو الزمـــان . وفي الجملة إذا تشابهت الأسماء دَقّ الفرقُ بينا كما أنه إذا تباينت الأسماء شَقّ الجمعُ بينها ، والنعت إنما يصحُّ إذا كان عليه نور الحسِ ويتحقق إذا طافَ بـــه نـــور العقل ، وكل خفيّ في ساحة الحسِ فهو بادٍ في فضاء العقل ، وكل بادٍ في فضاء العقل فهو خفيّ في ساحة الحِس ولولا هذا البوْن لكان الاستدلال من الشـــاهد على الغالب سهواً ، والاستنباط من الغائب في الشاهد لغواً ، أو لكانت الأمور ظاهرة على سير لا يُختلف في تناولها وادراكها والإحاطة بها ولكن ليس الامـــر هكذا ، وإذا لم يكن ما يريد فأرِدْ ما يكون ، فعلى هذا لا تثق بشهادة الشـــاهد في كل مكان ، ولا تَرتّبْ بحجة الغائب في كلّ زمان ، لكن أضِـــفْ أَبـــداً إلى حجة الشاهد أثَراً من الغائب ، وأضف إلى الغائب أثَراً من الشاهد حتى يَبـــين لك القياس ، فإن العالم متلبس أعني أنّ بلد الحس مُتَاخِمٌ لبلد العقل إلاّ أنّ نور الحس وإن كان شائعاً فهو قَمَريّ ، ونورّ العقل وإن كان غير شائع فهو شمسيٌّ، وأنّ دائرة هذا أعني القمر من دائرة هذا أعني الشمس ، فافهم فإن هذه النكتة متلقّاة بالتحيّة ، وهذه العويصة موشّحة بالرحمة .

قد بَعُدْنا عمّا كنّا فيه بهذا الاعتراض ، والرأي الرجوع إليه ، فـــالكلام إذا وجد مسرحاً لم يقف ، والخاطر إذا أصاب سَحّاً لم يكفّ .

*

نعم وأمّا الحياة الثامنة فهي حياة العاقبة وهي التي تُنال بعد المفارقة التي تسمى الموت ويستفظعُها الجمهور ، والاجتهاد والسّعي والكَدْح والدُّؤوب والاعتماد والتجمّل والتكلّف والقيام والقعود والعِبادة والزهادة والتعب والمشقة والقلق والسؤال والجواب والاستعانة كلها لهذه ، وانما احتيج إلى جميع ما سلف القول فيه من أجلها لآنها الغرض الأقصى واليها المنتهى ، وهي بالتمثيل شخصٌ ، وما سواها ظِلٌ وعَيْنٌ ، وما عداها أثر ، ويقظة وما قبلها حُلُمٌ ، وانما كان كدح الفلاسفة اليونانيين والإلهيين والطبيعيين والمتقدّمين والمتأخرين (×) بهذه الحياة الجامعة بين السرور والبقاء السرمديّ في حظيرة القدس ومراد الأُنس ، حيث لا يتعذر مطلوبٌ ولا يُفقد محبوبٌ ، حيث الطمأنينية والروحانية عند ربوة ذات قرار ومَعين ، وحيث لا عبارة لنا عن كنهه لأنه بلد لا عهد لنا به ولا ألفة بيننا وبين شكله ، وإنما شعرنا بهذا كله بنور إلهي سرى إلينا فشاع فينا ووجدناه يقيناً لا ريب فيه ، وشهدناه عِياناً لا مِرْيةً به والعِيان العقلي فوق القياس الحسّي ، لأن العقل مَوْلى والحِسَّ عَبْد ، وشهادةُ المولى مقدمة على شهادة العبد ، فلذلك عرّينا أنفسنا جُهْدَنا وطاقتنا عن كل أصفَر وأحمَر ، وعن كل حلو وحامض ، وعن كل لين وناعم ، وعن كل زِبْرِجٍ رائق ، وفاخر فائق . وفي الجملة عن كلّ ما أوثق القيد ، وأوبَقَ النفس ، وأوقع الدين ، وبالغ في اجتلاب الهلكة ، نعم ورفعنا قرناء السوء من داخل وخارج رغبةً في تلك الحياة ، وشوقاً إلى هذا الملكوت ووَجْداً بهذه الغبطة ، وطرباً إلى هذا النسيم ، وشقّاً للجيب على هذه النعمة ، تدرجاً إلى هذه العَاقبة . ولعمري أن من سافر إلى بلد العدل والأمن والخِصْب مرّ في

طريقه على كلّ مشقّة و (قلّة) أعوان وجَدب وما هــذا والله بــالصعب ، ولا بالشديد مع هذا العمر القصير ، والعيش العســير ، والعــوارض المؤذيــة ، والشدائد المعترضة والآفات المترددة . نسأل الله الذي بيده ملكوت كل شــي أن يحوذلنا من هذا العَناء المحشو بالعَناء بعد العناء إلى ذلك الجِــوار المكنــون بالقرار بتيسيرٍ وتسهيلٍ ، ورضى قلب ، وتسليم نفسه ، ورقة بال ، وفــؤاد مجيد قريب مجيب .



فهذا شرحُ أصناف الحياة الثمانية على ما جادت القريحة ، وســاعدت العبارة عليه ، فأما الحياتان الباقيتان اللتان إحداهما للملائكة ، والأخرى الــتي بها يقال لله تعالى جده حيٌّ فليستا من الأصناف التي يَلِج الوهم في كُنْهــها ، أو يُلُم النطق بحقيقتها ، ونُعُوتهما لم تقع إلينا جملةً في عرض التسليم والتعظيم ، وكم من جملةٍ نَبَا التفصيل عنها ، وكم من تفصيلٍ وقف عن جملته البــان ، ولهــذا حَسُنَ أن نسلو عن كل فائت من تلك المعان ، ونتعلل بما وضَح لنا في هــذا المكان ، ولا نتكلّف ركوب البحر بلا سفينة صحيحة ، ولا آلة حاضرة ، ولا ملاّح ماهر ، وذلك الجِرْم محروس من إِشراق الوهم ، ومن تغلغل العقل . ومن رسوم الذوات ، ومن حدود الصفات ومن الجسارة على ما يجُل عنه ، ويعتلــي عليه ، نحْنُ مكانيون ، زمّانيون ، خياليون ، وهميون ، ظنّيون ، متقسمون ممــا كان وما يكون ، حرّيون بالجهل ، جديرون بالنَّقْص . وانمانُدْرك بعضَ ما ندْرك

إذا صفت طينتُنا ، وزال عنّا تقسّمنا ، وفارقَنا وَهْمُنا ، وزال حِسُّنا ، وعَـــلا زمانُنا إلى دهرنا ، وعطف علينا العقل بشُعاعه ، وأودعنا ما هو من جواهـــره وذروره . فأما ما دمنا نرتكض في ظله الهيولي فإنّا نفقد كلّ حظٍّ جسيم ، ونتجه على كل فائت متمنى ، فاذا أقررنا بهذا الإشكال العويص فقد حرم الكـــرم في هاتين الحياتين اللتين ليستا من باب الهَيولي والصورة وتخطيط الطينة المهِينةَ ، إلا من جهة الدلالة عليها من ناحية الاسم المستعار لها فذا هذا ، وقد سقنا كلامـاً نزيناه من حثٍّ على نظم منتثر ، وجمع منتشر ، على أنّا لو أردنا شرح ذلـــك بنوع آخر من البيان لكنا نعجز عنه ، أو نتعرض لحدوث الملل منه ، ونرجـــع إلى ما وعدنا من اضافة لُمَعٍ من كلام فلاسفة اليونان وغيرهم إلى ما تقـــدم ، فإن في ذلك معونةً لما مضى وتنبيهاً على حقيقته ونفياً للشبهة إنْ عَرَضَتْ فيه ، وان وجدنا قوة في الكلام على شيء منها وصلناها بما يزيدها صقـــالاً عنـــد السمع ، ويزيدها جمالاً عند الفَهْم ، ويُكْسبها ثقةً عند النفـــس ان شـــاء الله تعالى.



قال أوميرسُ : إني لأعْجَبُ من الناس وهم يمكنهم الاقتداء بالله سبحانه وتعالى فَيَدعُونَ ذلك إلى الاقتداء بالبهائم والسباع فقال تلميذهُ : لعلّ هذا هـــو لأنهم قد رأوا أنهم يموتونَ كما تموتُ البهائم . فقال أوميرسُ : فلهذا الســـبب يكثر تعجبي منهم من قبل أنهم يحسبون أنهم لا بسون بدناً ميتاً ولا يحســبون أن

في ذلك البدن نفساً حيَّة غير مائته ، وفي هذا الذي قال هذا السيد سبية تـام ، وزجْرٌ نافع ، وإيضاحٌ لبعض ما يمر باطرافه الشَكُّ ويبعد في احكام الحكمـة أن يكون الانسان مع فضائله التي هي العقل والتمييز والمعرفـة والعلـم يفـارق البهيمية والسَّبعيَّة في الأول بالتحقيق ، ثم يصيرُ مشاكلاً لهذا الثـاني أعـني في الفناء والبُطْلان ، كأنَّ هذه الخيرات التي مُنحَها وخُصَّ بها إنما كان الغرضُ فيها أن يعتملها في منافع هذه الحياة الناقصة المنقصة والأحوال البائدة المنتهيـة ، لا وَحقِّ العقل الذي إذا شهد صَدَق ، وإذا بيّن حقّـق ، بـل وقعـت المـيزة والخصُوصية في هذا الطرف لتكونَ مستصحبةً للتضاعف والتزايد والاسـتثمار إلى الطرف الآخر ، ولا تضيع ولا تضمحل بل تبقى وتثبت وتنمو وتزكوا لأنها لو انقضت بانقضاء الانسان ولم تُثمر في الثاني بعـد أن أزهـرت في الأول ولم تخفف آنفاً كما وعدت سابقاً ، ولم تم بباطنها كما نقصت بظاهرها ، ولم ترمـز لغايتها كما أفصحت لشاهدها لكانتِ الحكمةُ مبتورة ، والقدرةُ مقصـورة ، والجودُ مَشُوباً ، والكرم مروباً ، واليأسُ واقعاً ، والخيبةُ غالبة، والرجاءُ ضائعاً، ومعاذَ الله من ذلك ، بل لما كان مبدأُ السباع والبهائم مخالفاً لمبـدأ الانسـان بالصورة المشاهدة بالعين والصورة المدْرَكة بالعقل كان الانسان مخالفاً لمنتـهى البهائم والسباع بالاعتبار المستفاد من العقل ، والتميـيز الحـاكم بـالأولى والأُخرى ، والرأي المصفّى من الهوى .

قال سقراط : نحن نعيش عيشاً طبيعيًّاً كي نعيشَ عقليّاً فاذا كان العيشُ الطبيعي إنما نحتاج اليه للعيش العقلي فلا نعطي القوة الطبيعيَّة شيئاً أكـثر ممـا تدعو إليه الحاجة والضرورة ، وهذا الذي قاله هذا الفاضل بيّن ، وهو غنيٌّ عن

التفسير وقد نضر ما ترد الخطاب فيه ، وتألف القول عليه ، وسارت العبارة الصريحة والاشارة الكلية نحوه . وقال زيد "بن رفاعة"[1] لتلميذه : لاتخف موتَ البدن ، ولكن يجب عليك أن تخافَ موت النفس . فقال تلميذه : لِمَ قلت : خافوا موتَ النفس ، والنَّفْسُ الناطقة لا تموتُ عندك . فقال : اذا انتقلتِ الناطقةُ من حدّ النطق إلى حدّ البهيميّ وإنْ كان جوهرها لا يبطل فإنها قد ماتت من العيش العقلي . قال أبو سليمان : صَدَقَ هذا السِّيدُ لان النفس كما تستنير بالمعارف الصحيحة والعقائد اليقينية ، والحركات المعتدلة ، والأفعال الواجبة كذلك تصدأ وتُظلم وتثوِي بالجهالات الراكدة ، والآراء الفاسدة ، والحركات المختلطة ، والأعمال الشنيئة ، والحالتان في طرفين متباعدين وليس الصدئ كالمجلو ، ولا الطالع كالغارب ، ولا الوجه كالقفا ، ولا العالي كالسَّافل ، الأمورُ موزونةً ، والمثالُ واضحٌ ، والقياسُ صدوقٌ ، والاعتبار حقٌ، والتقصيرُ وبالٌ ، والهويناءُ سَفَهٌ ، والاحتياطُ محمودٌ ، والمستظهُر مغبوطٌ ، والرغب إلى الفاني فانٍ ، والراغب في البقاء باقٍ ، ومن طلب وَجَدَ ، ومن جَبُن استنجد .

قال سويقلس : إن الذي لا يعلم أن له حياةً إلاّ حياة طبيعية فقط فهو شقيّ ، وذلك أنَّ هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل ، والنبات السريع

---

[1] هو زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة أبو الخير الهاشمي من اخوان الصفاء . عاش في الري والبصرة وصفه التوحيدي في الامتاع والمؤانسة فقال : "ذكاء غالب ، وذهن وقّاد ، ويقظة حاضرة ، وسوانح متناصرة ، ومتّسع في فنون النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس ، وسماع للمقالات ، وتبصّر في الآراء والديانات ، وتصرّف في كل فن ... وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً ، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ... فصحبهم وخدمهم" . توفى بعد ٤٠٠هـ.

الجفوف ، وبقاء صاحبها على الأرض قليلٌ يسيرُ بسيرةِ البهائم ، فأما الـــذي يعلم أن له مع ذلك حياة نفسية يغدوها بالنطق فإنه غير مائت ، وهو مغبــوطٌ باقٍ يقتدي بأفعاله بالله عزَّ وجلّ .

قال أفلاطون : لتكن مبادرتكم إلى الخروج من الدنيا كمبـــادرتكم في الخروج من الوليمة إلى أهاليكم . هذا مثلٌ صحيح واضح ولو قال : لتكـــن مبادرتكم إلى الخروج من الدنيا كمبادرتكم في الخروج من السجن إلى احبَّتكم في الجنان الملتفَّة ، والحدائق المونِقَة لكان أبلغ ، وفي الحقيقة أَوْغل .

وقال أفلاطون : الموتُ موتان ؛ موتٌ إراديٌّ ، وموتٌ طبيعـــيٌّ فمـــن أماتَ نفسه موتاً إراديّاً، كان موته الطبيعي حياةً له، هذا أيضاً في غاية الظهور، ونزيده نوراً بالعطف عليه ، فان الكلام يكون تارة خافيا ، وتارة في غاية الخفاء ومرة بينا ومرة في غاية البيان ، فالحاجة إلى تفسير ما في غاية الخفاء ، اشدُّ مـــن الحاجة إلى ما هو في أول الظهور ، وهذا كشعاع الشمس لَمَّا كـــان في غايـــة الظهور والانتشار كان صعب المدرك ، وما هكذا القمر ، فإنَّه إذا كـــان دون ذلك امكن ادراكه ، ويستريح النظر فيه ؛ فبهذا العُذْر نجسر على تفسير ما هو ظاهر بما هو أظهرُ منه ، أو على تفسير ما هو أظهرُ بما هو أعدلُ منه أي اقــرب إلى الفهم ، وألْوطُ بالذهن ، وأقربُ منالاً من العقل . فنقول : المـوت الإِرادي هو قمع الشهوات المُرْدية ، وإِخماد نيرانها المُحْرقة ، وتسكين سوانحها المُتْلِفَـــة ، وفي نوازيها الجامحة . فبهذه الحالة تفرغ النفس العاقلة لاقتناء كمالاتها الإِلهيـــة ، وإفاضة حركاته العدلية ، وإِبراز سكناتها الكمالية، فأما إذا كانت الشـــهوات

واقدة ، والذات مطلوبة ، والعادات غالبة، فان النفس العاقلة إما أن تكـــون ذليلةً في مكانها ، أو مهزومةً عن أوطانها ، أو في حرب دائرة الرحى ، مَخُوفـة العافية والمنتهى ، وأما الموت الطبيعي فهو غير مشكوك "فيــه" لأنــه حـائل الاخلاط ؛ ذو قوة متناهية ، والاخلاط مقاديرها محدودة ، والذَوبَان والسيلان يعملان عليها في الجملة والتفصيل والزمان بتصاريفه بمدّ الفناء ، وتحيّف البقـاء حتى يكون آخر ذلك بالفراق الحسِّي . لكن بهذا الفراق الحسِّي يقــع ذلــك الوصال العقلي . فهذا هذا .

وأما قوله : فمن أمات نفسه فإنّما أراد النفس الشّهْوى ، فلا تغلـط في الاسم إذا شابه الاسم ، فالأسماء قد تقترن في مواضع ومعانيها مفترقة ، والمعاني قد تنتظم في أماكن وأَسماؤها منتشرة ، ولهذا احتيج إلى الآلة المنطقية والامثلــة القياسية في الأمور الجزئية .

وأما قوله : كان موته الطبيعي حياةً له فقد تقدمت شهادة الحق في طيِّ ما سلف من الشرح .

وقال دمقراطيس : أمِت الشهوات في النفس ، ولا تُمِتِ النفــس في الشهوات ، فانك إذا أمتَّ الشهوات فيها فقد القيتــها في الشــهوات ، وإذا أمتَّها في الشهوات فقد حرمتها الشهوات . يريد بذلــك أنــك إذا حرمتــها حظوظها العاجلة فقد وهبتَ لها حظوظها الآجلة ، وإذا غمستها في حظوظــها العاجلة فقد حُلْتَ بينها وبين حظوظها الآجلة وهذا واضح.

وقال فيثاغورس : النفسُ بحر الشهوات ، والعقل بحر النجاة ، والحكمة بحر الخيرات ، والجهل بحر الضلالات ؛ والموت بحر الحياة .

وقيل لدوفنطس : ما تقول في الموت أخَيْرٌ هو أو شرٌّ ؟ فقال : أيٌّ خير في فرقة الأحباب ، وذوي المودّات لولا الفِكّ من الأسر ، والراحة من الجبر والكسر .

وقيل لنقوماخوس ذلك فقال : نِعْمَ المآبُ لولا فُرقةُ الأحباب وما تتوعدنا فيه الآلهة من العذاب .

هذه إِشارة إلى سُوءِ العاقبه الذي كسبه بسوءِ الاختيار . واسم الآلهة ها هنا مستعار .

وسمعت بعض الزهّاد عند موته يقول وقد نظر في وجود أصدقائه وأصحابه وهم عند رأسه : ما أشدَّ مفارقةَ الأصدقاء فقلت له : إنْ كنت على ثقة من القدوم على أصدقائك الذين قدّمتهم فلا تأسفْ على أصدقائك الذين خلّفتهم ، وإِنْ كنت على غير ثقةٍ فلا تأسف فامضض نفسك بالأسف عليها فقد فاتتك وفتّ بفوتها .

وقال انكساغورس : كما أنَ الموت رديءٌ لمن الحياة جيدة له فكذلك هو جيّد لمن الحياة له رديئة ، فليس ينبغي أنْ يُقال : إنَّ الموت رديء فقط بل جيّد أيضاً ، لا بل ينبغي أن يقال : الموت ليس جسّداً ولا رديئاً بالاضافة إلى شيء ما يكون جيداً أو رديئاً .

وقال فوثاغورس : إنّ آثار الطبيعة في هذا العالم قد رُمِزَت بظاهرها رمزاً بعد رمز ليلخص باطن مافي هذا العالم الذي هو قبالة ذلك العالم ، فمن تلك الآثار أن الطبيعة لم تخرج أشخاص نوع الانسان كاملة الأعضاء؛ صحيحة الآلات ، بل منها الشخص التام أعني أن يكون ذا لسان وعينين ويدين ورجلين وسائر ما يتم به البدن ويقدرُ على منافعه الحاضرة والغائبة ، ومنها الشخص المشوه الناقص كإنسان لايدَ له ولا عين أمام العاهات المعروفة والآفات المعهودة . وكما أن هذا الحكم ظاهر في أشخاص هذا النوع كذلك الحكم واضح في نفوس هذه الأشخاص أعْني أنّ منها النفس الفاضلة الكاملة ، النقية المقدسة ، ومنها النفس الناقصة الخسيسة ، والضعيفة المُدّنسة ، ومنها النفس المتوسطة ، هكذا يمكن أن نبعث بعده ، وكما أن الأشخاص التي عدمت هذه الآلات التي بها تتم منافعها هاهنا معذبة ، كذلك الأنفس الشريرة أحوالها في مَعادها ومنقلبها رديئة .

قال أبو سليّمان[1] وهذه عبارة شافية في الشقاوة والسعادة ؛ قال : ولو أن انساناً قال : إن الأعمى والأخرس أو الزمِن أو من أشبَه هؤلاء شقيٌّ لم يَبْعُد ، وإنّ البصير الناطق الصحيح السوي هو سعيد لم يَبْعُد ، وإنّ البصير الناطق الصحيح السوي هو سعيد لم يَبْعُد ، كذلك الذي نرى أن العالم الخيّر

---

[1] هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، تلميذ أبي بِشر متى بن يونس القُنّائي ويحيى بن عديّ . كان من أعاظم علماء المنطق والمطّلعين على دقائقه وأسراره ، وله : نظر في الأدب وشعر " وكان التوحيدي كثير الملازمة لمجالس أبي سليمان والنقل عنه .

الحكيم في المَعاد سعيد ، وإنَّ الجاهلَ الشرير السعيد في المْعَاد شقيّ لم يَبْعُد فهكذا أيضاً هذا .

قال أبو زكريا الصَّيْمري[1]: طبقات الناس من عالم خيّر أو عالم شرِّير، أو جاهل خيّر أو جاهر شرِّير . قال : وليس في القسمة أن يكون العالم لا خيّراً ولا شرِّيراً ، وأن يكون الجاهل لا خيّراً ولا شرِّيراً قال : فهذه الأُحوالُ منووطةٌ برقاب أهلها في الأول والآخر ، والظاهر والباطن أي قبلِ الموت بالحياة وبعد الحياة بالموت .

قال عيسى بن زُرْعة[2] : قال بعض أصحابنا من النصارى ممن تَفَلْسَف وتقشّف وتَرّهب : كيف يُبصر الانسان مَعاده بعين الثقة ، وعقله مستأسر في بلاط الشهوات ، وأمله موقوف على اجتناء اللذّات ، وسيرته جارية على أُسر العادات ، ودينه مستهلَك بضروب الضّلالات ، والله لو انسلّ من نَفسه الغضوب ، ومن نَفسه المرغوب ، وصار في باحة الصفاء ، وفضاء الطهارة والسناء ، لكان الإلف الذي نشأ منشأه ، وقوي بقوته ، وزاد بزيادته وشرُفَ بامتداده يُقذي عينه ، ويُدْمي جبينه ، ويغطي عليه أُبنُه[3] ، ويلفته عن سُنَّته ، ويُزل قدمه في مسلكه ، فكيف وهو في الشهوات منغمس وفي الشبهات

---

[1] ورد ذكره في المقابسات : في مواضع عدة . وفي تاريخ الحكماء ٢٢٤ تحت اسم "أبو زكريا الضميري".

[2] هوأبو على النصراني عيسى بن اسحاق بن زرعة بن يوحنا المنطقي أحد المتقدمين في علم الفلسفة والمنطق والفضلة المجّودين قال عنه البيهقي في تاريخ حكماء الإسلام : "كان حكيماً منطيقاً ، ومنطيقاً كاملاً" ولابن زرعة تصاليف عديدة ذكرها القفطي في تاريخ الحكماء ٢٤٥ ، وابن النديم في الفهرست ٣٦٩ . توفي ابن زرعة سنة ٣٩٨هـ .

[3] ابْنَةُ : عيبه .

مرتكس[1] وعن الرياضة نائم ، وعن الناصح مُعْرِض ، وعلى المُرشد مُعترض ، وإلى ما يضر جانح ، وعمَّا ينفع نارح.

قال أبو الخير الخمَّار[2] : إنَّما شقَّ على الانسان الخروجُ من هذا العالم من ناحية تركيبه الذي كان به موجوداً في عالم الحس . ولو علم أنه بالتركيب كان انساناً ، وبالحكمة كان كاملاً علم أنَّ الوجود الذي كان له بالتركيب كان مستفاداً من هذا البسيط ، وأنَّ أحد الوجودين ظِلّ للوجود الآخر ، وان الظل زائل ، والشخص ثابت ، ولكن كما أنَّ الانسان لا يُحسّ بما يبقى في النوع من بعده كذلك لا يُحِسّ بما يبقى في العقل من بعده ، فإلفْ التركيب يحد عن الاستيحاش من البسيط لأنه عدم ما ينظر الحِس ، أعني الموت ، والعدّم كونه جملة ، إلا أنه كما شقّ على الإنسان الناقصِ النَّقلة من هذا الوجهِ، هانت على الانسان الفاضل من ذلك الوجه ، لأنه اذا كَان مُطّلعاً على الغيب ، منقطعاً عن الشهادة اقبل على بسيطه الذي كان غريباً من تركيبه وعلم أنَّ هذه الحال إنما هي تخيُّله تركيبَه الذي وَرِثه من الهيولي والصورة إلى بسيطة الذي ناله من الصُورة ، فهذا العرفان في هذا المكان مسكنة للنفس ، ومَصْرفة للقلق ، ومجْلَبة للأُنس ، وها هنا يحدث الشوق إلى الله تعالى وإلى الدار الآخرة وإلى ما أعدّ للعارفين والموّحدين له ، والطالبين لمرضاته ، والراغبين في خدمته ،

---

[1] مرتكس : منتكس .

[2] هو أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المعروف بابن الخمار البغدادي المنطقي "كان في نهاية الذكاء والفطنة والاطلاع على علوم أصحابه المناطقة" له كتب كثيرة ذكرها القفطي وابن النديم .

والمجاهدين في سبيله والشائمين لوائح ما سَطَعَ[1] من عنده .

قال أبو سليمان: انما أُتِيَ الناس في اضطراب أسرارهم عند هذه الحقائق للغَفْلة الجاثمة على قلوبهم . فقال الاندلسي : ما الغَفْلة ؟ فقال : سهو الفؤاد بركاكة المِزاج ، وبلادة الطّباع ، ثم قال : والغَفْلة في اليقظة بإزاء الحُلم في النوم ، واليقظة في الحسّ على نوعين ، فأَحَدُ نوعيْ اليقظة في الحس أن صاحبها ينفذ في الأمور الحِسّيّة ، ويتوغل فيها الأمور بمكر ودهاء وكيس وفِطانة واحتيال ، والنوع الآخر في اليقظة أنّ صاحبها يُقبل على نفسه وجوهره وحقيقته فيعتني بمعرفتها ، والعناية بها بتربية العقل من حركات تعظّمها بالعدالة وسكنات تنيرها بالسواء : وفي الجملة يلحظ عوالي الأمور ، ويتحلى بعالي الأخلاق ، ويكون في ظاهره انساناً مجهوداً وفي باطن ظاهره مهذباً زكيّاً ، وفي ظاهر باطنه ملكاً كريماً . وهذا تمثيل على تقريب ، واللفظ ظلوم ، والعبارة فتّانة ، إما تضع إلى النقص المتحيّف ، وأما ترفع إلى الزيادة المُفسدة .

وأما أحد نوعي الاستضاءة في العقل فهو ما يحصل لهذا الانسان المَغْنيّ بخاصّة نفسه ، المُعان على الاقتباس بعقله ، القاصد إلى اقتباس حياتِه الدائمة من حياته الميتة المنقطعة ، فان قلت وكيف يكون هذا ؟ وهل يجوز أن يقتبس حيلة دائمة من حياة منقطعة ، فهذا أول غفلتك ، أوجنى جانٍ عليك . انت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء ، فيتصل الثاني وينقطع الأول . فان قلت : أن هذا الثاني إذا اشتعل فهو أيضاً إلى الخمود ، فاعلم أن

---

[1] في الأصل : ما سطح.

ذلك إنما هو كذلك لأنك نقلت شيئاً من زمان إلى زمان الحق متشابه حكماً بما فيه ، وهذا التشابه لا يعاند الحكم الأول الخامد . فأما المقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة فانه يسير من حياة زمانية إلى حياة دهرية بدليل أن الزمان خليفة الدهر ؛ فما كان محفوظ العين بالزمان كان محفوظ العين بالدهر ، لا فاصلة بين الزمان والدهر ، لأن آخر الزمان والدهر موصول بأول الدهر والدهر زمان ولكن في ذلك العالم فلا تعجب من زمانيّ تحوّل دَهْرّياً بالمشابهة النفسيَّة والمشاكلة الجوهرية ؛ فالحياتان واحدة وان توسطّهما الموت ؛ كما أن الشمس واحدة، وإن توسطتها الأرض وأعني القرص قرص الشمس، والشعاع المبسوط على الأرض .

تنفّس القول بما اعترض ، وطال قليلاً ونرجع إلى فض ما كنا عليه ونقول : وأما النوع الآخر فهو ما يكمل الانسان كمالاً لا عبارة لنا عنه في هذا الوطن ؛ ولا خبر عنه عند أحد من هذا النوع ؛ وهذا هو الذي خلص من جميع ما دعا إليه الأنبياء عليهم السلام ؛ وحضّ عليه الحكماء ، وتردد بين تعريض في غاية الحلاوة ، وتصريح في نهاية الخطابة ، وهناهنا نستغني عن كل دليل وبرهان ، وعن كل قيل وقال ، لأن المطلوب يصير موجوداً ، والملتمس يصير مدركاً، والمبتغى ، يصير حاضراً ، فما أولانا بعد الإشراف على هذه السبيل الواضحة بالعقل . المسلوكة بالقصد ان ننفق هذه الأيام اليسيرة القصيرة الساعات، المحدودة المعدودة في طلَب هذه المراتب العلية ، والدرجات الشريفة والأحوال الحسنة الكريمة .

وقال أبو سليمان : الناس في حديث الموت ثلاثة ، فأما الغني ذو الجِدَة والقُدرة والثروة فهو يكره الموت بالبينة ، وفي مقابلته الفقير الشقي السيء البخت المحروم المرحوم ؛ وهذا على الضد يتمنّى الموت ، والأول انما يكرهه لأنه يحب أن ينال اللذّة ، ويغرق في الشهوة ، ويستمتع بالنعمة ؛ وان كانت غايته في هذه الحال الكَلال والانحلال والانقطاع .

والثاني أعني الفقير إِنما يتمنى الموت ليتخلص من الحسرة الخانقة ، والحرقة اللازمة ، والحاجة الفاضحة ، والأَسف الراتب ، والضجر الغالب ، فهذان على تقابلهما منقوصان منحوسان قد زلاًّ وضلاًّ وتردّيا في الهوّة السُّفلى وما لهما ناعش ، ولا ناصر ، ولا شفيق ؛ ولا ناصح .

قال : فأما الثالث فهو الحكيم الذي قد وَثِقَ بالمَعاد ، واطمأنَّ إلى حسن المنقلَب فهو يدأب في أخذ العتاد ، وإِعداد الزاد للحياة الصافية التي هي في مقابلة الحياة الكَدِرة ، ويكون دؤوبُه ونَصَبُهُ على قدر استبصاره وشوقه إلى الله تعالى في وزن معرفته بالله ، ومطالعته على حسب يقينه في نفسهِ ، وخطواته على استقامة صراطه ، واجتهاده في مثال قربه ، وحنينه يتلو رقيه ، ورقيهُ في وزَان صفائه ، وهذه مقالة لا تلج كل أُذن ، وصوب لا يلين به كل طين ، وعين لا يشرب منها كلُّ وارد ، وترنم لا يطرب عليها كل سامع ، ولحن لا يفهمه كل فَطِن . قال: وإنما حرمت هذه الحكم لأَن الناس قد ملكتهم الطبيعة، وخدعتهم العاكلة ، وقَمَرهم[1] الشباب وخمرهم الشراب ، وسباهم الهوى ،

---

[1] قمره : سلبه ماله .

وتحكم فيهم الردَى . ولا جَرَمَ ، الحقُّ كالبارق في عقولهم ، والحكمةُ كاللعقة على ألسنتهم، لا في درجات لديانة يرتقون إلى الجنة ، ولا بنصائح الحكم يتنقّون من أوساخ الشبهة والظنة . وكان أبو سليمان إذا نزل هذا الوادي من القول قام خطيباً : فبذّ كلّ قائل ، وسبق كلّ جَواد ، واستولى على كل أمد ، وأنشد أبو سليمان قول شاعرهم :

إنّما العيشُ في بهيمَّة اللـذّة لا ما يقولُهُ الفلسفيّ[1]
حكمُ كأسِ المنون أن يتَساوى في حساها الغبيُّ والألمعيّ
ويصير الغبيّ تحت ثـرى الأرض كما صار تحتها اللّوْذعيّ[2]
فَسَلِ الارضَ عنهما ان أزالَ الشكَّ والشبهةَ السوآلُ الحفيّ[3]

فقال : هذا النَمط مفسدة للشباب الأغرار ، والذين ليست لهم بصيرة في الأمور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء ، وقائل هذا قد عاند الدين ، وخلعَ ربْقَه[4] الحياء ، وأفصح عن الفساد ، وصدَّعن الحكمة ، وقدح بزند الشـبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول الخفيفة . يامسكين ! أمن أجل أن الصالح والطالح والعالم

---

[1] في الوافي بالوفيات (مخطوط في المجمع العلمي العربي بدمشق) ترجمة محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني : لذة العيش.

(٢) ورد هذا البيت في الوافي هكذا مصحفاً:

ويحل البليد حيث يرى الارض كما حلّ تحتها اللّوذعي

(٣) ورد بدلاً عن هذا البيت :

أصبحا رُمّةً تزايل عنها فصلها الجوهري والعرضي

[4] الربقة : العروة في الحبل ، وخلع الربقة : تحلل .

والجاهل صاروا تحت التراب يتساوون في العاقبة ؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد فلما بلغوا المقصد نزل كلٌ واحد في مكان كان معدّاً له . وتلقّي بغير ما تلقي به صاحبه ؟ أما دخل قوم داراً فأجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء ، وهذا بشيء آخر ثم تقولُ : سل الأرض عنهما ! قد سألنا وخبرَّتنا أنّها ضمَّت أجسادهم جثثهم وأبدانهم لا كفرهم وإيمانهم ، ولا أنسابهم واحسابهم ، ولا حكمتهم وسفههم ، ولا طاعتهم ومعصيتهم ، ولا يقينهم وشكهم ، ولا زهادتهم وتسبيحهم ، ولا معرفتهم وتوحيدهم ، ولا خيرهم وشرّهم . ولا جَورْهم وعدلهم . والمنقلب إلى المعاد موقوف على هذه الحالات التي عددناها وعلى أمثالها وان لم نعدها على الجثث البالية ، والابدان المتحللة ، واللحوم المنتنة ، والشحوم الذابة ، والمَهَل[1] الجاري ، وهذا كله خبر عن الَصداف ، فأين الخبر عن الدرر التي كانت في الأصداف ؟ وأين الأعلاق من الحقَائق ، وأين الامتعة من الاوعية ، وأين اللطائف من الكثائف ؟ وأين القشور من اللب ، وأين الجواهر الباقية من الأعراض الفانية ؟

ثم قال : اعلم أن الناظر في هذا الكتاب رجلان : رجل ينظر إلى الأشياء ورجل ينظر في الأشياء . فالأول يحار فيها لأنّ صورها وأشكالها ومخاطيطها تستفرغ ذهنه ، وتستملك حسّهُ ، وتبدِّد فكره فلا يكون له منها ثمرة الاعتبار ، ولا زبدة الاختيار ، وإذا فَقَدَ الاعتبار في الأول فَقَدَ فائدة الاختيار في الثاني ، وأما الناظر في الأشياء فإنه يتأنى في نظره ، وتأنيه يبعثه على

[1] المَهَل : صديد الميت خاصة .

التصفح البالغ ، والتصفح البالغ يؤديه إلى تمييز الصحيح من السقيم ، والباقي من الفاني ، والدائم من العارض ، وما هو قشر مما هو لبّ ، وما هو شعار مما هو دثار ، وما هو شجرة مما هو ثمرة ، فيعلم حينذاك أن الدنيا قشرة الآخرة ، وأن الآخرة لبّ الدنيا ، وأن الموت صراط اليها ، والعابر على الصراط حريّ يجمع الزاد والخلوط ، ولكن للجواز من مكان إلى آخر يصلح للمقام والتبوء والتمهيد ، فإن الإنسان إلى ذلك دعي بكل لغة وبكل لطيفة . فمن أطاع وأجاب فقد هدي إلى سواء الصراط ، ومن أبى فقد تردّى في هوة العذاب ، ولا سبيل إلى الإجابة إلا بعد رفض كل ما خدع النفس ، وخَبَل العقل ، وأضلّ الرأي ، وزيّن العاجلة ، وطرَحَ التهمة في الأجلة ، وكان ينشد كثيراً:

النفس تشتاق إلى قُدسها ... والجسمُ مطبوع على حبسها
وفعلها يخرج عن حدّه ... لالفها ما ليس من جنسها
وحبسها في السفل من علوها ... أدلُّ برهان على بَخسها

فهذا هذا ، وعلى كل حال وبكل نظر ، فقد بان ووضح أن الظعن عن هذا المكان ضروري ، وأن النيّة غير محتملة للبْثٍ لامور بادية وخافية ، فينبغي الآن أن نصدق البحث عن المصير إلى الثاني أهو إلى البقاء أو إلى الفناء ، وإلى الوجود أو إلى العدم ، وإلى الكمال أو إلى النقصان . أمّا لسان كل دين قديم أو حديث فقد أفصح عن البقاء والدوام والخلود السرمد في الثاني على اختلاف الحالات ، وأما الحكمة فبجميع أجزائها وفنونها قد نطقت، ونادت إلى الحياة الثانية بعد هذه الحياة المعروفة ، ولم يبقَ وراء هذين اللسانين البليغين إلاّ ما يهذي به ناس سخُفَت عقولهم ، وخفّت أحلامهم ، وزاغت آراؤهم ،

وغلبت أهواؤهم ، وقَصُرَ نظرهم ، وخَبُثَت طباعهم فشقّ عليهم الاقرار بالمعاد والمنقلب وظنّوا أنه متى لم تكن هذه الحال عياناً أو كالعيان فانما هو ظنّ وتخيّل وحِسْبَان . قال : ولو كان الأمر على ما زعموا لم يُحتج إلى العقل وبحثه ، والنظر واستنباطه والاعتبار وتمثيله ، وكان الشاهد كالغائب ، والغائب كالشاهد ، والظاهر كالباطن . والباطن كالظاهر ، والعين كالأثر ، والأثر كالعين ، والراجم بهذا الظن مغرور ، والمتمني لهذه الحال مرحوم . ولا فرق بين هذا التمنّي وبين من تمنى أن تكون جواهرُ البحر كلّها طافية على ساحله حتى يُكْفَى مؤونة الغوص في قعره ، وذَهَبُ الأرض كلُّهُ موضوعاً على حديدها[1] حتى يُكفَى العناء في استخراجه من معدنه ، وتكون الجبال كلُّها مدكوكةً حتى يُكْفَى مشقة صعودها في حوائجه ، وتكون ثمار الأشجار مدركة يانعة في كل أوان ومكان حتى يُكْفَى التعب والسَقي والغرس والانتظار . وعلى هذا باب التمنّي لا تقفل عليه ولا حائلَ دونه . وأما اللبيب صاحب الحزم المصيب فهو الذي ينظر إلى العالم نظراً بالغاً صحيحاً تامّاً ولا يعكسه عمّا هو به ، ولا ينكسه إلى ما ليس عليه ، ويأخذ منه شهادة في شيء سمي بمعونة العقل النيّر ذي الشعاع المنتشر الذي فضل به على الجنس الذي هو منه على كثير من نوعه الذي هو به حتى ينكشف له بالعقل ما هو ملبوس بالحس ، ويتضح له بالحس ما هو غامض بالعقل ، ويشهد له الذهن بما هو مجحود بالظن ، وينصحه (الادراك) فيما هو مغشوش بالوهم ، ويقربه اليقين مما يباعده لشك ثم لا يبقى أثر للتسويل والتضليل إلا ممحوّاً ، ولا كدر في طلب المعتقد إلاّ صافياً ،

---

[1] كذا في الأصل ولعله جلدها أو صدرها .

فحينئذ يصادف الحق غير مشكُوكَ فيه ، ويدرك المراد غير مرتاب به ، ويوصل إلى المطلوب ، واللبّ رخيّ ، والمشرب هنيّ ، والثقة حاصلة ، والطمأنينة واصلة ، وقلّ من يتدرح إلى هذه الذروة إلاّ بعد أن يكون وثيق العروة ، صحيح البصيرة ، قوي العزيمة ، محكم الأصل ، مرهف النصل ، وهذا قليل ، ومع قلته مأمول .

وقلت يوماً لأبي سليمان : أنشدني جماعة من أهل الريّ لأبي بكر محمد ابن زكريا الرازيَ[1] بيتين وهما :

---

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فيلسوف وطبيب وعالم بالمنطق والهندسة قيل إنه كان في صباه صائغاً أو صيرفياً وأجمعت الآراء على أنه كان مغنياً فلما التحى قال : "كل غناء يخرج بين شارب ولحية ، ما يطرب" فأعرض عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطبّ والفلسفة "فقرأها قراءة متعقب على مؤلفيها فبلغ من معرفتها الغاية اعتقد صحيحها ، وعلّل سقيمها" وصنّف في الطبّ كتباً كثيرة فمن ذلك الحاوي في ثلاثين مجلدة ، وظلّ يشتغل بالطب حتى صار "رئيس هذا الفن وطبيب المسلمين غير مدافع" ثم اشتغل بعد ذلك بعلم الكيمياء والإكسير ، وطال عمره وعمي في آخر عمره ويقول الصفدي : إن سبب عماه أنه صنّف للملك منصور الساماني كتاباً في الكيمياء فأعجبه ووصله بألف دينار وقال :أريد أن تخرج ما ذكرت من القوة إلى الفعل ، فقال : إنّ ذلك يحتاج إلى مؤن وآلات وعقاقير صحيحة ، وإحكام صنعة فقال الملك : كل ما تريده أحضره إليك وأمدّك به ، فلما كعّ عن مباشرة ذلك وعمله قال له الملك : ما اعتقدتُ أنّ حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة ، يُشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيما لا فائدة فيه والألف دينار لك صلة ، ولا بدّ من عقوبتك على تخليد الكذب في الكتب ، ثم أمر أن يضرب بالكتاب الذي وضعه على رأسه إلى أن يتقطع ، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيه . وتوفي سنة ٣١١هـ ويقال إنه عاش إلى أن أدرك الوزير ابن العميد وقال عبد الله بن جبريل : "كنت قد وقفتُ على بيتين من شعره وهما:

لعمري ما أدري وقد آذن البلى ...."

وكان وقوفي عليهما بدمشق سنة ٧٣١هـ فقلت راداً عليه في وزنه ورويّه:

إلى جنّة المأوى إذا كنتَ خيّراً — تُخلّدُ فيها ناعِمَ الجسم والبالِ
وإن كنتَ شرّيراً ولم تُلقَ رحمةً — من الله فالنيرانُ أنتَ لها صالِ

لعمري لا أدري وقد أذّن البلى بعاجل ترحالٍ إلى أين ترحالي
وأين مكان النفس بعد خروجه من الهيكل المنحل والجَسد البالي[1]

فقال : وما علينا من جهله إذا لم يدرِ إلى أين ترحاله ، أما ترحالنا فإلى نعمي دائم ، وخلود متصل ، ومقام كريم ، ومحل عظيم في جوار من له الخلق والأمر ، وهو الأول بالحق والموجود بالضرورة ، والمعروف بالفطرة ، والمشتاق إليه في السر والعلانية ، والمفزوع إليه بكل إشارة وعبارة ، والمشهود بكل سكون وحركة ، والمستعان به عند كل نائبة وفادحة ، والمعهود منه كل بِّر وكرامة ، الذي لا يسمح الخاطر إلاّ به ، ولا تعنو النفس إلا له ، ولا يسكن القلب إلاّ معه ، ولا يطمئن الفؤاد إلاّ بذكره ، ولا يدرك النجاح إلاّ بتوفيقه ، ولا يطرب إلاّ بنسيم لطفه ، ولا يطرد أمد إلاّ بعنايته ، ولا يستقيم ذو أَوَدَ إلاّ برفقه ، ولا يفيء شارد إلاّ بتأليفه ، ولا ينقاد مارد إلاّ بتلطفه ، ولا يسلك طريق إلاّ بهدايته ، ولا يُنجَا من كريهة إلاّ بكلاءته، ولا يتعجب إلاّ من صنعه، ولا يصابُ بَرْدُ اليقينَ إلاّ بفضله ، ولا يُتَهَنّأ إلاّ بعطائه ، ولا تنال السعادة إلاّ باختصاصه ، ولا يعرف نعت شيء إلاّ باقتصاصه ، ولا يطرب إلاّ بترنم ذكره ، ولا يتبرك في أَمر إلاّ بتقديم ذكره واسمه ، ولا يُجابُ بَلَدٌ وَعر إلاّ بدليله ، ولا يعالج عسير إلاّ بتَسهيله ، ولا يقطع أمر إلاّ بتقديره ، ولا يدرك مأمول إلاّ بتيسيره ، ولا يستولى على الأمد إلاّ بطاعته ، ولا يعتز إلاّ بمعرفته ، ولا يوثق إلاّ بكرمه ، ولا يُحظى عنده إلاّ بتوحيده ، هو الذي وهب الاحساس ليستَمْتع بنعمه ، وكرر الانفاس حتى تجال في اكناف ملكه ، ومنح العقول حتى يُستضاء

---

[1] في رواية : مكان الروح.

بنورها في تصفح عالمه ، وحشا الملكوت بالعجائب حتى يحار في قدرته ، وأبرز أموراً حتى يعترف بالآهيته ، وغيّب أموراً حتى يكون مستبدّاً بربوبيته ، فالجود ظاهر بالموجود ، والقدرة جارية بالتصريف ، والحكمة شائعة بالنظام ، والحاجة قائمة إلى التوفيق ، والثقة مستحكمة بالكرم ، والايمان ثابت في القلب والمعرفة مريعة في النفس ، والتمجيد معقود باللسان ، والجوارح منصرفة بالعبودية ، والشوق حديد إلى اللقاء .

فالحمد لله على ذلك كله بخالص عقيدة السر وغاية قوة البشر. فهذا هذا.

وأما ترحال ابن زكريا فالى محل الحيرة ، ومطمأن الحسرة ، بحسب ما ضل وأَضل ، وهان وعز واعتز ، لأنه حلّق بالدعوى في كتبه حتى ظنَّا أنه ملك ، وأَسَّفَ بالشك حتى تيقَّنا أنه قد هلك والسلام .

قد أَتينا على الغرض في هذه الرسالة على ما تقدم الوعد به من شرح أصناف الحياة ، وإضافة اللمع المضمومة إليه بقدر الوسع وأرجو أن يكون مكانه من نفس الحاث على تصنيفه غير نابٍ ، ورضاه عني فيه غير متعذّر ، على أني والله ما كتبته إلا بعد جمود الخاطر ، وفلول الحد ، وعوز النشاط ، فقد علت السن ، ونهكت الكبرة ، وانحنى الصلب ، وذوي الفهم ، وهرم الذهن ، وغلب الوسواس ، وأزف الرحيل وبيد الله الفرج ، وإليه المعراج والمعرج وعليه التوكيل .

تمت الرسالة والحمد لله وحده ، والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه آمين .

تمت سنة ٩٧٣هـ

الكشاف العام

١ - الأعلام

٢- الأماكن الجغرافية

٣- البطون والقبائل

٤ - الأشعار

٥- الكتب الواردة في النص

الإشارات الإلهية	٣
الإمتاع والمؤانسة	٣
البصائر والذخائر	٣
بغية الوعاة	٣
تقريظ الجاحظ	٣
رسالة الحياة	٥
الصداقة والصديق	٣
مثالب الوزيرين	٤
المحاضرات والمناظرات	٤
المقابسات	٣

فهـــــــرس الكتاب

رقم الايداع	١١٢٨٧ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى	977-5250-94-3